

ماهي كتب كيو - تي؟¹

ديفيد ريغل²

الجزء الأول

تُعتبر كتب "كيو-تي" كما يعلم معظم الثيوصوفيين - المصدر الذي استُمدت منه مقاطع دزيان³ الواردة في كتاب العقيدة السرية⁴ ويُقال إنه إلى جانب هذه الكتب السرية، توجد مؤلفات "عامة" لـ "كيو-تي" محفوظة في مكتبات الأديرة التبتية. ومع ذلك، ظلت هذه المؤلفات العامة - من الناحية العملية - سريةً حتى عام 1981، وهو التاريخ الذي تم فيه التعرف عليها. ورغم أنها تُصنف كـ "عامة" - نظراً لكونها مدرجة ضمن المجموعات المطبوعة للنصوص البوذية التبتية - إلا أن التقاليد التبتية لا تزال تعتبرها تعاليم سرية لبوذا، وبالتالي فإن الوصول إليها مقيد. وحتى يومنا هذا، لم يُترجم إلى اللغة الإنكليزية سوى جزء ضئيل للغاية منها.

¹ Kiu-te.

² David Reigle.

³ Stances de Dzyan.

⁴ La Doctrine Secrète.

كانت مشكلة تحديد كتب "كيو-تي" تعود في المقام الأول إلى النسخ الصوتي لاسم "كيو-تي"، والذي يُكتب في نظام النقل الحرفي (غير الصوتي) بلفظ "ركيود - سدي"⁵.

إنها كلمة تبتية، وكحال معظم الكلمات في اللغة التبتية، لا تتطابق طريقة كتابتها مع طريقة نطقها. ونظراً لعدم وجود نظام قياسي للنقل الحرفي للغة التبتية في عصر بلافاتسكي، لم يكن أمامها خيار سوى اعتماد النسخ الصوتي الذي استخدمه المؤلفون الذين كانت تشير إليهم. وفي معرض حديثها عن كتب "كيو-تي" تحت عنوان "الكتب السرية" لـ "لام - ريم"⁶ و'دزيان تستشهد بلافاتسكي بالراهب "هوراس ديلا بينا"⁷، الذي سافر إلى التبت عام 1730. وتظهر روايته ضمن ملحق كتاب كليمنتس آر. ماركهام⁸ المعنون: *روايات عن بعثة جورج بوغل إلى التبت ورحلة توماس مانينغ إلى لاسا*. ويصف هذا النص، من بين أمور ثانية، الكتب المقدسة التبتية؛ حيث يطلق عليها في تهجنته اسم "خاغيور"⁹ وهو ما يُكتب وفقاً لنظام النقل الحرفي المعتمد حالياً لدى مكتبة الكونغرس بلفظ "بكا - غيور"¹⁰ وتنقسم هذه الكتب إلى فئتين:

⁵ rGyud-sde.

⁶ Lam-Rim.

⁷ Horace della Penna.

⁹ K'hagiur.

¹⁰ bKa'-'gyur.

"دوتي" و "خيوتي"¹¹ اللتان تُكتبان اليوم "مدو – سدي" و "رغيود – سدي" وهاتان هما الفئتان الرئيسيتان للنصوص المقدسة في البوذية "السوترا"¹² و "التانترا"¹³.

يُقدّم ما سبق ملخصاً موجزاً لتحديد هوية كتب كيو-تي باعتبارها "التانترا" الخاصة بالبوذية التبتية. ويمكن الاطلاع على تفاصيل أوفى في مؤلّفي المعنون: *كتب كيو-تي أو تانترا البوذية التبتية: تحليل أولي".

ومنذ نشر هذا العمل عام 1983، أثار هذا التحديد شكوكاً، التي يعود سببها الرئيسي إلى الآراء المعروفة لبلافاتسكي اعتبرت فيها "التانترا" أعمالاً تنتمي إلى السحر الأسود. كما وصف "هوراس ديلا بينا" في المقطع ذاته الذي استشهدت به بلافاتسكي بخصوص "كتب كيو-تي"- هذه الكتب بأنها "قانون كيو-تي الشانن والمقرز"⁵. ومع ذلك، فإن معرفة بعض الحقائق قد تساعد في توضيح هذا الأمر.

ثمة فرق جوهري بين "التانترا" البوذية و"التانترا" الهندوسية، على الرغم من وجود بعض أوجه التشابه السطحية؛ وجدير بالذكر أن "التانترا" الهندوسية كانت هي وحدها المعروفة للعالم الخارجي في عهد "بلافاتسكي". وتتجلى هذه الاختلافات في حقيقة أن "التانترا" الهندوسية

¹¹ Dote... Khiute.

¹² Sutras.

¹³ Tantras.

تحظى بنظرة سلبية لدى قطاع عريض من الهندوس، ولا سيما داخل مجتمع "البراهمة" المتمسكين بـ "الفيدا"؛ في حين تحظى "التانترا" البوذية، لدى البوذيين التبتيين، باحترام شامل باعتبارها أسمى التعاليم البوذية. ومع أن المراقبين الخارجيين والمشككين قد يساورهم الشك في أن "غوتاما بوذا" قد علّم بالفعل "التانترا" البوذية — وهو أمر يؤمن به ضمناً جميع البوذيين التبتيين — فإنه لا يمكن إنكار أن "بوذا الثاني"، "تسونغ خابا"¹⁴ (مؤسس مدرسة "غيلوغبا" أو "القبعات الصفراء")، قد خصص نصف مؤلفاته لموضوع "التانترا". ربما يكمن الفارق الأهم بين التانترا الهندوسية والتانترا البوذية في الدافع وراء دراستهما وممارستهما. ففي التقليد التبتى، يتمثل الهدف -المعلن بوضوح والمُجدّد يومياً- للممارسة التانتيرية البوذية في تحرير الكائنات من المعاناة. وتهدف هذه الممارسات إلى تنمية قدرات "بوذا" لدى الفرد، وذلك لتسخيرها في خدمة الصالح العام. وهذا ما يُعرف بـ "مثالية البوديساتفا"¹⁵ حيث يضحي المرء بتحرره الشخصي ليبقى إلى جانب الكائنات التي تعاني ويقدم لها العون. أما في التانترا الهندوسية، فإن الاهتمام الوحيد ينصبّ على خير الممارس نفسه فقط.

من الضروري التأكيد على هذه النقطة: يرتكز التانترا البوذي كلياً على مثالية "البوديساتفا". وتُعرف الممارسة التأملية

قالت بلافاتسكي أنه تقمص لبوذا. المترجم. Tsongkhapa¹⁴

¹⁵ Bodhisattva.

الرسمية المرتبطة بتانترا محدد بـ "السادهاانا"¹⁶. فبعد صيغة "اللجوء"، تبدأ جميع ممارسات السادهاانا في التانترا البوذي باستحضار "البوديتشيتا"؛ وهي العزم الصادق على بلوغ الاستنارة في أسرع وقت ممكن، بهدف تقديم العون الفعال للكائنات. ونظراً لندرة الأشخاص الذين يتحلون بنكران الذات اللازم للحفاظ على هذه الممارسات القائمة على الإيثار-كما وردت في نصوص التانترا- فقد أُحيطت هذه الممارسات بالسرية منعاً لأي إساءة استخدام. ومع ذلك، كان الجميع على دراية بوجودها، وكان التانترا البوذي يحظى بتبجيل واسع في أرجاء التبت، باعتباره يضم أكثر الأساليب تطوراً لبلوغ مرتبة "البوديساتفا"، أي أن يصبح المرء خادماً للعالم.

كان هذا المثل الأعلى ذاته هو الدافع الواضح للجمعية الثيوصوفية، كما تشهد على ذلك الكلمات الحاسمة التالية لـ "ماها-تشوهان"¹⁷:

[إن فكرة أن نسمح نحن -أتباع ذلك التجسد للروح المتفانية في التضحية المطلقة، والمحبة الإنسانية، والخيرية الإلهية، وكل الفضائل السامية التي يمكن بلوغها على هذه الأرض المليئة بالمعاناة؛ أعني "إنسان البشر" غوتاما بوذا- بأن تصبح "الجمعية الثيوصوفية" تجسيداً للأنانية، أو ملاذاً لأفراد لا يكرثون بالخير العام؛ هي فكرة غريبةٌ يا إخوتائي].

¹⁶ Sadhana.

¹⁷ Maha-Chohan.

[من بين اللحاحات النادرة التي حصل عليها الأوروبيون عن التبت وتسلسلها الهرمي السراني المكون من "اللامات الكاملين"¹⁸، ثمة لمحة واحدة فُهمت وُصفت بدقة، وهي: "إن تجسيدات البوديساتفا 'بادماباني'¹⁹ (أو - أفالوكيتيشوارا)²⁰ و'تسونغ خابا' - وكذلك تجسيد "أميتابها"²¹ يتخلون، عند وفاتهم، عن بلوغ حالة "البوذية" - أي ذروة الخير والسعادة الفردية المطلقة- لكي يولدوا من جديد²² مراراً وتكراراً من أجل خير البشرية". وبعبارة ثانية، أن يظلوا عرضةً -مرة تلو الثانية- للبؤس، وللسجن داخل الجسد، ولكل معاناة الحياة؛ وذلك بشرط أن يصبحوا -من خلال هذا التضحية بالذات التي تتكرر عبر قرون طويلة وشاقة- وسيلةً لضمان الخلاص والسعادة في العالم الآخر لنخبة مختارة من البشر، لا يمثلون سوى عرقٍ واحدٍ من بين أعراقٍ بشريةٍ عديدة. وعلينا نحن، الأتباع المتواضعين لهؤلاء "اللامات الكاملين"، تقع مسؤولية منع الجمعية الثيوصوفية من التخلي عن أسمى ألقابها، ألا وهو... "أخوية الإنسانية"، لتتحول إلى مجرد مدرسة لعلم النفس؟ كلا، كلا يا إخوتي الأعزاء، لقد استغرقتم طويلاً في هذا الخطأ].

¹⁸ Lamas parfaits.

¹⁹ Bodhisattva Padmapani.

²⁰ Avalokiteshvara.

²¹ Amitabha.

²² أي يرفضون دخول النيرفانا - نظير بوذا - لكي يساعدوا البشرية.
 المترجم.

يُعدّ مَثَل البوديساتفا أساسياً وجوهرياً في التانترا البوذية، وكذلك في النيوصوفيا، في حين أنه يغيب عن التانترا الهندوسية.

وثمة فارق جوهري آخر بين التانترا البوذية والتانترا الهندوسية، يرتبط بهذا المثل الأعلى، وهو غياب الإيمان بآله (أو ما يُعرف بـ "اللا-ئيسم" أو "اللا-إلهية"). فكما هو معلوم، تُعد البوذية واحدة من الديانات القليلة في العالم التي لا تؤمن بوجود إله أو آلهة. وبناءً على ذلك، فإن "الألوهيات" العديدة التي تزخر بها الأدبيات التانترية البوذية لا تكاد تشترك في شيء -من منظور الممارس البوذي- مع تلك الألوهيات التي تبدو مشابهة لها في التانترا الهندوسية. فالهندوسية، في صورتها الراهنة، ديانة تؤمن إيماناً راسخاً بوجود الآلهة؛ حيث تُعبد هذه الآلهة وتُسترضى بهدف حثها على منح النعم والبركات للممارس الهندوسي، وما إلى ذلك.